اوضاعنا الى ما وصلت اليه من شرذمة وتشتت، وكذلك ـ وهذا هو الأخطر ـ ضعف، يبدو معه كأن الشعب الفلسطيني اصبح بعيداً من تحقيق اي من اهدافه، اكثر منه في اي وقت مضى. والانكى والادهى هو ان نصل الى هذا الوضع بعد اكثر من عقدين متواصلين مما سُمي «نضالاً»، سقط خلاله آلاف الشهداء؛ احياناً كثيرة للضرورة، واحياناً اكثر دون حاجة الى ذلك.

والأمرّ من ذلك كله هو ما يشير الى ان هذا الوضع، استناداً الى معطيات عديدة، ليس مرشحاً للتحسن، بل ان العكس هو الارجح ، فنتجه نحو مزيد من التدهور قد يؤدي الى كارثة. والخوف من كارثة أخرى، او محاولة العمل، قدر الامكان، على منعها او، ربما، الهرب منها، باعتبار انها «ستشرفنا»، ان عاجلاً او آجلاً، يخلق شعوراً قوياً وملحاً بضرورة فتح «حوار» من نوع خاص للغاية، ومحاولة استطلاع دروب ومسارات عمل أخرى.

ولا حاجة للعودة الى الماضي البعيد لتقديم أدلّة على ما ذهبنا اليه. بل يكفينا مثالاً، في هذا الشأن، الدروس المستفادة من تجربة عقد الدورة الاخيرة للمجلس الوطني، بحيثياتها كافة و «انجازاتها». فبعد بضع سنوات من الانشقاقات والخلافات والتناحر، خلال فترة من التشتت ايضاً، تفتق « الفكر » السياسي الفلسطيني، باتجاهاته كافة، عن ضرورة اجراء «حوار» ـ اي، عملياً، ثرثرة ـ تمهيداً لاعادة «توحيد» المنظمة. وما ان بدأ ذلك «الحوار» حتى عادت حليمة الى عادتها القديمة، وسرعان ما راح كل شيء، تقريباً، يعود الى سالف عهده. وبدت الدورة الاخيرة للمجلس الوطني وكأنها طبعة مكررة، وان كانت غير كاملة التفاصيل، من دورات المجلس السابقة التي عرفناها جيداً حتى الآن، بانعدام تنظيمها، وقلة فعاليتها، وقراراتها الانشائية (وهذه المرة الضارة أيضاً)، في رتابة تثير الحزن. اما المشاكل الملحة، والحقيقية، فقد بقيت بعيدة من متناول البحث، وبدا واضحاً ان ما كان سوف يكون دون زيادة أو نقصان.

والدرس الكبير الماثل للعيان من هذه التجربة هو ان حركة المقاومة باتت غير قادرة على تجديد نشاطها، والتعامل بما تمليه ضرورات المصلحة مع التطورات المستجدة والتحديات الكبيرة التي تواجهها القضية الفلسطينية. بل ان هذه الحركة تبدو، الآن، اكثر من اي وقت مضى، وليدة الواقع العربي الذي نشأت فيه، او برزت كانعكاس له، وتشبهه في نواح عديدة، بحيث تظهر وكأنها نظام آخر من الانظمة العربية، او من انظمة العالم الثالث كافة، التي تسير على طرق لا تعرف بالضبط نهايتها.

والفرق الوحيد، والمهم، بين المقاومة وتلك الانظمة، هو ان للأخيرة، على الاقل، ارضاً تقف عليها؛ وهو ما ليس متوفراً للاولى، التي لا يبدو، نتيجة لذلك، انها سوف تستطيع المحافظة على بقائها طويلاً، في اوضاعها الحالية. ولا يعني ذلك ان منظمات المقاومة سوف تختفي، او ان منظمة التحرير الفلسطينية سوف تضمحل او تفقد ما لها من حيوية ونفوذ بين ليلة وضحاها. فهذه «المخلوقات»، حتى مع حالتها الصحية الحالية المعتلة، يمكن ان تعمر طويلاً، باستعمال ما تيسر من المهدئات والعقاقير العصرية. الا انه قد يعني، فيما لو استمر الحال على هذا المنوال، ان هذه التركيبة بأسرها قد تفقد فعاليتها وتنكفىء على ذاتها، وتترهل وتشيخ تدريجياً، بحيث لا يحسب لها، عندئذٍ، اي حساب، على الرغم من انها تبقي مسجلة في عالم الاحياء.

ولعل المصير الذي آلت اليه الهيئة العربية العليا، او حكومة عموم فلسطين، يكفينا مثالاً.

وهذه القناعات، التي اشرنا اليها، لم تتبلور، بالطبع، صدفة، بل ان لها مايبررها. كما انها ليست مقصورة على جهة دون اخرى، اذ يلمس المرء بوادرها وانعكاساتها، بصورة واضحة للغاية، لدى دوائر وشخصيات وكوادر فلسطينية عديدة، كل منها يقاسي ويتذمر على طريقته.

والسبب الرئيس لذلك، كما يبدو لنا، هو ان الحركة الوطنية الفلسطينية الحديثة ـ مثل معظم